بحجة انهم أصحاب كرامات وشفعاء عند الله يتوسطون بينه وبين عباده في حاجهم وان كانوا رمما في قبورهم حتى قال بعضهم لا فرق في طلبنا الحاجة من الحي وطلبنا اياها من الميت لان كلا منهما لا فعل له ولا تأثير في الايجاد وكلا منهما قد يكون واسطة — الحي واسطة جسدية والميت واسطة روحية — وكسلوهم عن الاعمال النافعة والمصالح العمومية باسم الزهد والتسليم للقدر وغير ذلك مما لا سعة في هذه المقالة لشرحه . ولم تقف مضرات جهلهم عند هذه الوساوس الدينية بل استعملوا نفوذهم لخدمة سياسة الاجانب وتمكينها من الاستيلاء على أمتهم وانا نروي لك بعض شأنهم في ذلك فاعتبر بما يروى البقية للآتي

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

ألمنا في المقالة السابقة ببعض تعاليم الجهلاء من شيوخ الطريق وذكرنا ان منها تعليق النفوس وانالطة الآمال بالشيوخ أحياء وأمواتاً ، وتعليم الناس الاستعانة بهم على قضاء الحاج ، بحجة انهم أصحاب كرامات وشفعاء يتوسطون بين الله تعالى وبين عباده في درء المفاسد والمضار وجلب المنافع والمصالح ، ولما كان هذا من الاعتقادات المضرة التي هدمها الاسلام كما ألمنا في المقالة المتقدمة ، وكان ما كتبناه سابقاً في منكرات الموالد لم يكف لاقناع جميع الآخذين به لايجازه واجماله أحببنا أن نزيده ايضاحا ليتميز الحق من الباطل فنقول :

الذاهبون الى أن من الدين الاستعانة بمن يعتقد فيهم الولاية أحياء وأمواتا والوقوف على الاجداث والقبور لطلب المصالح التي عز طلابها ، والحاج

التي جهلت أسبابها ، وأغلقت أبوابها، ينقسمون الى قسمين عامة وخاصة أما العامة فمنهم من يعتقد ان صاحب القبر حي في قبره يخرج لقضاء الحاج فيقضيها بنفسه مهما كانت ولا يفتكر في تدقيق الاشاعرة في الفرق بين الجبر والكسب وخلق الفعل وحجة هؤلاء على اعتقادهم الحكايات التي يتناقلونها عن كرامات صاحب القبر وان هي الا أكاذيب اخترعتها الخيالات والاوهام فاذا سئل هؤلاء عن التأثير وعدمه تحير أكثرهم واذا لقنوا أية عقيدة في ذلك ممن يظنون به خيراً أخذوها بالقبول وهؤلاء هم الاكثرون فيما يظهر للمختبر ومنهم من له بعض الالمام بما يقول الخاصة وأما الخاصة فيحتجون بالشبهتين اللتين أشرنا اليهما وهما الكرامات والشفاعة واننا نستعين بالله تعالى وحده في بيان فساد الاحتجاج بهما على وجه مختصر مفيد فنقول

أما جواز وقوع الكرامة فلا يقتضي ان من قواعد الاسلام وأحكامه ان يستعين الناس على حوائجهم بمن يجوز أن تصدر منه وذلك لوجوه (١) ان الله تعالى أقام هذا الكون على سنن حكيمة، ونواميس ثابتة، وأمر الناس بالعمل بحسب القوى التي منحهم اياها، كما يعرفون ذلك بالوجدان مراعين سنن الله تعالى ونواميس خليقته ، وأن يعتقدوا أن لا متصرف في الوجود سواه ولا قدرة غيبية الا له وأمرهم أن يخصوه بالاستعانة على مالا يبلغه كسبهم كما يخصونه بالعبادة حيث قال في السبع المثاني التي يثنونها في صلاتهم كل يوم «اياك نعبد واياك نستعين» نعم أمر الناس بالتعاون في الامور الكسبية بقوله « وتعاونوا على البر والتقوى » . والناس في ذلك سواء وفي الحديث الصحيح (اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله) والكتاب والسنة طافحان بأمثال هذه النصوص

(٢) ان ذلك لم يعهد في الصدر الاول من سلف الامة الذين يقتدي بهم فلم ينقل ان الصحابة كانوا يأتون قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويطلبون منه رد ضوالهم وشفاء مرضاهم ودفع الجوائح عن زرعهم ونحو ذلك مما يطلبه العوام من الاولياء عند قبورهم في هذه العصور المظلمة وقد جاء في حديث الموطأ وغيره « لا تتخذوا قبري وثنا » وهو مما اوصى به صلى الله عليه وسلم عند موته بل ما كانوا يعتمدون على الخوارق في زمن حياته وهو زمن المعجزات القطعية لا الخوارق المشكوك بها وانما يعتمدون على عملهم وكسبهم فان أعانهم الله تعالى بخارقة شكروا والا عملوا وصبروا (٣) صرح العلماء بأن الخوارق أمور نادرة مجهول أمرها فلا يبني عليها حكم (٤) صرح السبكي وغيره بأن الولي لا يجوز له اظهار الكرامة الا لضرورة وعدوا هذا من الفرق بينها وبين المعجزة الواجب اظهارها وليس من الضرورة حاجة الناس اليها في دنياهم مثلا وقد التمس السبكي في الطبقات الكبرى أسبابا ضرورية لما نقل عن بعض السلف من الخوارق وقد قال سيدي احمد الرفاعي الكبير قدس سره (ان الولي يستتر من الكرامة كما تستتر المرأة من دم الحيض) فاذا كان هذا حال الكرامة عندهم فكيف نرخي للعامة العنان في الاعتماد عليها (٥) صرح الشيخ الاكبر قدس سره بان الكرامة لا تتكرر لانها أمر خارق للعادة واذا تكررت كانت معتادة فلا تكون خارقة وظاهر ان مايطلبه العامة من ذلك يشبه بعضه بعضا ويزعمون انه وقع مثله من كل ولي يطلبون منه فتكرار الطلب عبث وغرور (٦) قسم بعض المتأخرين الخارقة الى أقسام من مقتضاها انها تظهر على يد كل صنف من أصناف الناس لا فرق بين بر وفاجر وتختلف

أسماؤها باختلاف من ظهرت على يده فان ظهرت على يد فاسق أو كافر سميت استدراجا فاذا أضفنا الى هذا عدم التفرقة بين الحي والميت في اعتقاد ان الفعل لله تعالى وان الخارقة سبب لنيل الحاجة فلا بأس بأن يذهب الناس لقبور الفساق والكفار ويطلبوا منها حاجتهم بناء على جواز ان يحصل ذلك لهم استدراجا لامثال الاموات وان شئت فرضت ذلك مع الاحياء من المذكورين (٧) ان الاعتماد على الامر النادر الغير موثوق به كالكرامة كالاعتماد على مايسمونه فلتات الطبيعة أو على الكنوز وهو من الجهل والغرور الذي ينبغي انكاره وعدم تقرير فاعله عليه

وأما طلب قضاء الحاج وتقويم الاعوجاج من الاضرحة والقبور بناء على ان أصحابها شفعاء يتوسطون الى الله تعالى فيها فهذا بعيد عن دين الاسلام ومخالف لعقائده وآدابه أيضا لان الذين أثبتوا الشفاعة من المسلمين وهم أهل السنة قالوا انها اكرام من الله تعالى لنبيه أو له ولمن شاء الله من المصطفين في الآخرة لا في الدنيا والشفاعة المتفق عليها عند المسلمين هي التي ترجع الاخبار فيها الى حديث معناه ان لكل نبي دعوة مجابة على سبيل القطع وكل نبي قد دعا بها في الدنيا فاستجيبت له ونبينا صلى الله عليه وسلم قد ادخرها للشفاعة في الاخرة ولا محل هنا لايراد الخلاف في الشفاعة وما لكل فريق من مثبتها ونافيها من الادلة القرآنية على ذلك ويكفي فيما نحن فيه انها مختصة بالاخرة وانها لا يقطع بها (ولا في الاخرة) لاحد من هؤلاء الاولياء والصالحين الذين يطلب الناس منهم حاجاتهم المتعسرة عليهم ويحملنا حسن الظن على التأويل لهم بأنهم يعتقدون فيهم الشفاعة والتوسط

بينهم وبين الله تعالى لا الايجاد والتأثير كأن الانكار لا يكون الا على الشرك المحض والكفر الصريح .

ان عباد الاوثان والاصنام والبشر منهم من كان يعبدها لانها شافعة لا لانها خالقة وموجدة وقد أنكر القرآن عليهم بايات منها قوله تعالى حكاية عنهم في معرض الانكار «ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى» الاية وقوله تعالى «ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض» الاية وهي ترشدنا الى انه لا يجوز لنا ان نقتات عليه سبحانه باتخاذ شفعاء لم يأذن لنا باتخاذهم واعلامه بما لا يعلم فيما اذا لم يكونوا ممن ارتضاهم للشفاعة. وان فيما تقدم في بحث الكرامة وفي الآيات والاخبار الكثيرة التي تأمرنا بالالتجاء الى الله وحده لانه أقرب الينا من حبل الوريد وفي العقيدة المقطوع بها عند جميع فرق المسلمين من ان الله تعالى لم يجعل واسطة بينه وبين خلقه في الاعدام والايجاد وانما جعل الواسطة للتعليم والارشاد وهم الانبياء (ومن جرى على آثارهم فهو كالنائب عنهم) وقد انقطعت هذه الوساطة بخاتم الانبياء الذي هو آخر وسيط وفي الحديث الشريف الذي أشرنا اليه من ان الله تعالى منح كل نبي دعوة واحدة مستجابة فما يدعو به غيرها موكول لفضل الله تعالى وغير مقطوع باجابته وفي الاحاديث الكثيرة التي بينت ان الرخصة في زيارة القبور بعد النهي عنها انما هي لاجل الاعتبار بالموت وتذكر الآخرة لا لاجل الانتفاع بالميت ولذلك يزار قبر الكافر والفاسق وفيما ورد في الاحاديث من ان الميت تحت رحمة الله تعالى كالغريق المتغوث (طالب الغوث) وانه يستحب الدعاء له وفيما شاهدنا من فساد عقائد العامة باقرارهم على ما يصدر منهم

عند زيارة الصالحين (وهو ما فصلناه سابقاً) الذي انتهى ببعضهم الى اعتقاد التأثير لهم والى تسيب السوائب ، كالعجول ونحوها باسمهم كما كان المشركون يسيبونها للاصنام ونهى عنها القران والى المفاضلة بينهم وبين الانبياء والى الحلف بالله باطلا والتحرج والتأثم من الحلف بالولى كاذباً والى ترك الاسباب في المصالح الكلية اعتماداً على الاولياء كما جرى في بخارى عند زحف الروسيا عليها حيث أجاب العامة وكثير من الخاصة من أمرهم بالتأهب والاستمداد للمدافعة عن البلاد بقولهم ان شاه نقشبند رضي الله تعالى عنه هو حامي بخارى وهو الذي يرد الاعداء عنها وفيما ورد في الكتاب والسنة من أن آباء بعض الانبياء وأبناءهم كانوا كفاراً وأبناء كثير من الاولياء كانوا فساقاً أشقياء ولو كان الامر في يدهم فعلا أو شفاعة لما كانوا كذلك — في ذلك كله وفي غيره من الآيات والعبر ما يوجب على العلماء أن يبينوا للناس قولا وكتابة أن لا يعتقدوا بقدرة غيبية الا لله تعالى وان يسيروا في مصالحهم الدنيوية على السنن والنواميس التي طبع الله الكون عليها ودلتهم المشاهدة على صدق الكتاب في عدم تبديلها وتحويلها وأن لا يعتمدوا على الخوارق الموهومة ولا على الشفاعات التي هي في الدنيا معدومة وفي الاخرة غير معلومة بمعنى انه لا يعلم لولي بخصوصه شفاعة في الاخرة على انهم « لا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » وان سيد الشفعاء عليه السلام كان يقول لاهله وعشيرته الاقربين « اعملوا لا أغني عنكم من الله شيئا » وأمثال هذه الارشادات التي فيها سعادة الدنيا والاخرة — لا أن نسكت للعوام على منكراتهم المشاهدة هي ومضراتها بناء على حسن

الظن المبني على أمور مشكوك في حصولها وهل مع مشاهدة المنكر مجال لحسن الظن والقاعدة أن اليقين لا يزول بالشك

نعم ان لزيارة العلماء والصالحين أحياء وأمواتا فائدة معقولة لم يرد بها الشرع فيما نعلم وهي تأثر الزائر بتذكر ما أوتيه المزور من الفضيلة والكمال وانفعال روحه بما ينهض الهمة ويبعث على التشبه والاقتداء اذا كان الزائر ذا بصيرة صافية تتمثل لها شمس الكمال فيفيض عليها من أنوار الهمة والعزيمة ما يبعث على احتذاء ذلك المثال والنسج على ذلك المنوال ولعل هذا ما يعنيه السادة الصوفية بقولهم التبرك بالزيارة واستمداد الهمة من المزور « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون »

الشعر العصري

من نظم صاحب الفضيلة استاذنا الشيخ حسين افندي الجسر الطرابلسي الشهير

بالجد يبلغ ذو الامال ما طلبا ... وبالوفاق ينال المرء ما رغبا

ياعصبة المالة الغراء أنشدكم ... ربّا بعزة علياه قد احتجبا

ما السرّ في ان اسلافا لناسلفوا ... سادوا البرية فيما أورث العجبا

ياجاهلا قدر علياهم وما اكتسبوا ... سل الاناسي أوسل عنهم الكتبا

تخبرك انهمُ سادوا الانام علا ... ودوخوا الكون حتى السبعة الشهبا

يجبي اليهم خراج الارض قاطبة ... بذاك خاطب هارون الهدى السحبا

هل كان ذاك بغير الجد حالفه ... حسن الوفاق والا فاذكر واسببا